عرفتُ جبرا

أ.د. إبراهيم السعافين– الجامعة الأردنيّة

عرفتُ جبرا إبراهيم جبرا المبدع حين كنتُ أعدّ أطروحة الدكتوراه عن" تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام" في أوائل السبعينات. تعرفت إلى شخصيّة جبرا المبدع من روايتيْه "صراخ في ليل طويل" و"صيادون في شارع ضيّق".

لقد شدّني هذا الكاتب الأصيل لأنني رأيت شخصيّته في شخوص رواياته، ولا سيما الشخصيات الرئيسية التي تأكدت فيما بعد أنها تحمل ملامح من شخصيته هو. تابعت الكتابة عنه حين درست اللغة في رواية السفينة، التي صدرت عام 1970 وهي دراسة مطولة نشرت في أوائل الثمانينات، ثم أردفتها بدراسة عن روايته " الغرف الأخرى" الصادرة عام 1986. وهي رواية تجريبيّة تغوص في دهاليز النفس الإنسانية وتتخذ منحى وجوديًّا ورمزيًا في آن معًا.

أطلعته في صيف عام 1987 على دراستي لروايته" الغرف الأخرى" حين لقيته في بغداد، وقد كنت مدعوًّا آنذاك لحضور فعاليّات مهرجان المربد الشعريّ، فسُرَّ بهذه الدراسة، وشجعني على مناقشتي معه حول تفاصيل تتعلق بالرؤية والمضمون والتشكيل، فأحسست أنني أعرفه من سنوات خلت، ثم دعاني إلى بيته مع أحد الأصدقاء في حي المنصور والتقينا زوجته لميعة العسكري التي كانت الشخصية الرئيسية النسائية في روايته "صيادون في شارع ضيق" تلك الرواية التي ترجمها عن الإنجليزية تلميذه محمد عصفور عام 1974 وكانت قد صدرت بالإنجليزية في أوائل الستينات بعنوان *"Hunters in a narrow street"* حيث ضمّت هذه الرواية بعض قصص مجموعته القصصية" عرق وقصص أخرى".

تأكّد لي مع مرور الزّمن أن ثمّة تماهيًا بين جبرا الإنسان وجبرا الفنّان، فالفنّ يسري في عروقه؛ شخصيّة جذابة آسرة وبسيطة في آن معًا. شخصيّة يقظة دافئة وعميقة، يحسبه من لا

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/882

يدرك حقيقته بأنه برجوازي وجد ضالته في المجتمع المخملي في بغداد وبيروت وفي غير مكان، ولكنه في أعماقه مسكونٌ بالهم الفلسطيني وبالهم العربيّ، والذي يقرأ ما كتبه عن لوحة القدس في رواية "السفينة" يدرك عمق انتمائه لوطنه وبيته وأهله، ويدرك عمق المأساة في نفسه، وقد عبّر عن ذلك صراحةً حين لمس علاقة الفنّ بالقضية الفلسطينية في مقالته العميقة "الرواية والموضوع الكبير" حيث يعبّر عن عدم قدرة أية رواية على الوصول إلى جوهر المأساة الفلسطينية.

حين تلقى كاتبًا كبيرًا لا تكوّن، بالضرورة، انطباعًا من حديثه أو من ملامحه أنّه ذلك الكاتب الكبير، على عكس جبرا، فملامحه وخطوط وجهه لوحة إنسانية فريدة، وحديثه جزء أصيل من فنّه. هادئ لا يصخب، ابتسامته أليفة قريبة وضحكته تبعث البهجة والفرح في مجلسه كلّه.

ربطته علاقة وثيقة بالروائي عبد الرحمن منيف، هذه العلاقة التي جسدت البعد القوميّ والإنسانيّ لدى كلٍّ منهما، فقد كان جبرا يفهم البعد الحضاريَّ على نحو أعمق، إذ يرى أنّ سكان هذه المنطقة مسلمين ومسيحيين ينتمون إلى حضارة واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية، التي تضمّ كلّ مكوناتها بتفاعل وتسامح. وقد عبّر عن هذا المعنى على ألسنة شخصيات رواياته.

تلقيت كتابًا من أصدقاء جبرا إبراهيم جبرا ممهورًا بتوقيع عبد الرحمن منيف وسعد الله ونوس يطلبان مني المشاركة ببحث في كتاب تكريمي يهدى إلى الأستاذ جبرا، وقد لبيّت الدعوة بالموافقة الفورية لما تربطني بجبرا ومنيف من صداقة ومودة. وقد طلب جبرا أن تكون دراستي "الغرف الأخرى وإشكالية الوعي" التي نشرت في مجلة فصول القاهرية هي العمل الذي يضمه الكتاب التكريمي. وقد توهّمت أن الأستاذ منيف قد اقتطع الدراسة من مجلة فصول ولكنه لم يفعل وظلّ ينتظر الدراسة، وكان الكتاب التكريميّ قد أوشك على الاكتمال ثم الصّدور.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/882

فطن الأستاذ جبرا إلى الأمر قبل فوات الأوان، وسألني فيما إذا أرسلت الدراسة فأخبرته أنني قضيت صيف عام 1993 في ألمانيا وذكرت له ما توهّمت، فطلب مني الإسراع بتسليم صورة من البحث إلى الصديق ماهر الكيّالي الناشر المرموق صاحب المؤسسة العربية للدراسات والنشر. وقد نشر ماهر الكيالي رسالة جبرا إليه في هذا الصدد التي تتحدث عن هذه الملابسات بالتفصيل في كتابه "رسائل جبرا إلى ماهر الكيّالي".

وفي عام 1994 استضافت الحلقة النقدية في مهرجان جرش للثقافة والفنون الأستاذ جبرا في فعالياتها، فدعوته للقاء طلبتي الذين أدرسهم بعض أعماله فوافق بترحاب على عادته، وقد كنت أنتهز فرصة دعوة بعض الكتاب والنقاد الكبار لدعوتهم، وكان جبرا يجمع بكفاءة منقطعة النظير بين الإبداع والنقد، ولكنني فوجئت صبيحة يوم اللقاء بالاعتذار بسبب وعكة صحيّة طارئة، اكتشفتُ أنّه يشكو من تسارع في نبضات القلب. ذهبت إليه فوجدته كابيًا بل حزينًا على غير العادة.

بعد أن اطمأننت عليه طلب مني أن يزور إحسان عبّاس في بيته، فصحبته في سيارتي وقد شعرت بتحسن مزاجه وهو يلقى مجموعة من زوار إحسان، كان من بينهم تلميذه بكر عباس شقيق إحسان، وكان جبرا قد درّس بكرًا المدرسة الرشيدية في القدس. ثم التقى جبرا بإحسان مرةً أخرى حين دعوته مع أصدقاء آخرين على العشاء في بيتي، وقد تحدث إلى زوجته السيدة لميعة في عيد ميلادها. لقد كان نجم الجلسة لما يتمتع به من قدرة آسرة على رواية الأحداث والمواقف، ولما يتميّز به من حس الفكاهة والدّعابة، وأمّا إحسان عبّاس فقد كان سعيدًا غاية السعادة بهذا اللقاء.

كان جبرا إبراهيم جبرا يحظى باهتمام الأدباء والمثقفين في العراق، إذ تحلّق حوله الأدباء الشّباب الذين امتدّت أبصارهم إلى آفاق الحداثة، وقد أشاع مناخًا ثقافيًا استقطب خيرة الأدباء والشعراء والنقّاد، مثلما لقي هو اهتمام العراقيين وتقديرهم.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/882

وقد ذكر لي أنه حين ترجم جزئين من كتاب "الغصن الذهبي" لفريزر، تخاطفه الشعراء والأدباء وهو مخطوط، وفتنوا بأسطورة تموز ومنهم شاعر العراق الكبير "بدر شاكر السيّاب". ولعلّ التفات الشعراء العراقيين وربّما الشعراء التموزيين أو شعراء الحركة التمّوزية في العالم العربي إلى أسطورة تموز وعشتار وشبيهاتها من أساطير البعث يعود إلى جبرا إبراهيم جبرا بالذّات.

لقد خلقت سنوات الحصار في التسعينات وضعًا صعبًا في العراق عانى منه الأدباء والمثقفون وعامة النّاس، وانعكس هذا الوضع على الأستاذ جبرا الذي حضر إلى الأردن في فصل الصيف القائظ عام 1994 في حافلة مخصّصة للمسافرين بين عمّان وبغداد، لأنّ الرحلات الجويّة كانت محظورة آنذاك.

أقام الأستاذ جبرا بعد أن انتهت ضيافة المهرجان في شقة فندقية في منطقة ام أذينة بعمّان، لأنّ ظروفه الماديه لم تكن تسمح له في ظلّ أوضاع الحصار أن يقيم في فنادق الدرجة الأولى وقد تجاوز السبعين بسنوات.

وفي هذه الأثناء طلبت مني إحدى طالباتي وهي الدكتورة وزيرة الثقافة "لانا مامكغ" فيما بعد، أن أقنعه بأن يشارك في برنامجها الثقافي في التلفزيون الأردني في "فضاءات" فوافق شريطة أن يحصل على مكافأة مناسبة لقاء هذه المشاركة، وقال: أنا أتضايق من الذين يطلبون منّا أن نشارك في وسائل الإعلام من دون مقابل، ويزعمون أنهم يقومون بتلميعنا، نحن لسنا في حاجة إلى تلميع، وعليهم أن يحترموا من يدعون. أخبرت مقدمة البرنامج بما طلبه الأستاذ جبرا، فتأثرت بما سمعت، وقالت: معه كلّ الحق، وحصلتْ على إذنٍ من الإدارة بتلبية ما طلب.

ذهبت معه إلى مبنى التلفزيون، وقد حظي التلفزيون بحلقة غنيّة ممتعة، ليست المتعة التي اعتادت عليها وسائل الإعلام التي تقدم اللهو في الغالب، وتمتنع عن تقديم الممتع المفيد. لقد كان جبرا باهرًا وهو الذي جمع بين المواهب والمعارف في الأدب والرسم والموسيقى والنقد والفكر والتاريخ.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/882

قلت له ذات يوم: أمرٌ جيّدٌ أنّك عشت في بغداد، واستطاعت موهبتك أن تستبطن غنى الحياة الاجتماعية وأن تعيش في لجة المجتمع وأن تعاين طبقاته الغائرة، ولم تبقَ على هامش المجتمع ولا على أطراف المدينة. كان جبرا ساردًا بالسليقة يحيل المعرفة إلى الفن ويحول الرسم والموسيقى إلى قصة وشعر فكان له ما أراد.

في أوائل التسعينات شاركتُ معه في مؤتمرٍ حول الأدب الحديث في جامعة أردنيةّ نائية في الجنوب، ودُعي المؤتمر إلى الغداء في إحدى الجامعات الخاصة في عمان. لا أدري كيف قدم الطهاة أطباقًا لرئيس الجامعة وصاحبها حيث يجلسان، ودعي الضيوف وجبرا منهم لتناول الطعام على طريقة اخدم نفسك. تأمّلت، وأنا حزينٌ لهذا الموقف، جبرا ينهض بلا غضاضة فعجبت من هذه الجامعة ومن رئيسها الذي يعرف جبرا حقّ المعرفة، فتذكرت ما أسمّيه سيكولوجية الكرسيّ، لم يكترث جبرا، فهو يرى أن يمارس خدمة نفسه مع سائر الضيوف أجل من تكبّر زائف مصطنع. وتكرّر الأمر حين قُدّمت القهوة للرجليْن، وذهب كل واحد من المؤتمرين لخدمة نفسه بنفسه.

أذكر جبرا إبراهيم جبرا في رحلته الأخيرة إلى عمان التي صحبته فيها طويلاً. ذهبنا معًا خارج عمّان، استرسل في تحليل الأوضاع السياسية والاجتماعية آنذاك، كان يتحدث بوعي ساطع، وإحساس قومي ووطني عميق، هذا الرجل الكبير الممتلئ معرفة وخبرة وتجربة، وقلت في نفسي آنذاك: لماذا لا يستفيد السياسيون من الأدباء والعلماء ورجال الفكر. تطرقنا إلى روايته "يوميات سراب عفّان" لقد كانت سراب امرأة حقيقية عرفها من لحم ودم، ولعل كثيرًا من شخوص رواياته هي كذلك ولكنها، أي شخصيات رواياته، كما يقول مركبة من شخصيات كثيرة.

يوم استقل الحافلة إلى عمّان أوصلته بسيارتي إلى موقف الحافلات في العبدلي، اشترى بيضات مسلوقة وبعض الخبز والكعك وزجاجة ماء وجرائد يتسلّى بها، وودعته داخل الحافلة المكتظة بالمسافرين والمتجهة إلى بغداد أيام القيظ والحصار. هل كان حزينًا؟ ربما، لقد كنت

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/882

بالفعل أشدّ منه حزنًا. ترك معي جبرا بعض كتبه وبعض الكتب التي أهداها له الأصدقاء والمريدون على أمل أن يأخذها مرة أخرى حين يعود، ولكنه لم يعد. بعد أشهر قليلة مضى جبرا إبراهيم جبرا لِطِيَّته دون أن يُرفع الحصار ودون أن يعود إلى بيته في الطالبية، في القدس الغربية التي احتلّها الصهاينة عام 1948.

لقد طلب مني جبرا أن أجمع بحوثي ومقالاتي عن رواياته في كتاب، فوعدته والحافلة تهمّ بالانطلاق إلى بغداد، أن أجمع ما كتبته عنه، وأوفيت بوعدي بعد عامين حين أصدرت كتابي عنه "الأقنعة والمرايا– دراسة في فن جبرا إبراهيم جبرا الروائي"، وحين رأيت ابنَه "سدير" قلت له: إنّ والدك ترك عندي مجموعة من الكتب، فاعتذر عن حملها، وبقيت وديعةً في مكتبتي حتى الآن.

هل يحتمل جبرا ما حلّ بالأمة وهي تحترب وتتصارع وترى الأجنبيّ يجهض كلّ مشروعاتها في التحرّر والوحدة والتنمية والتقدم، لعلّه تذكر ماضيه كله، وعقد الأصدقاء الذي ينفرط يومًا بعد يوم، كيف ذلّ الأدباء والمثقفون في ظل حصارٍ جائرٍ أهلك الزرع والضرع وعزّ الرغيف. مضى ذلك الفنّان الأصيل وخلّف وراءه تراثًا أصيلاً لا يغيب.

هذا شطرٌ من قصيدة لي سابقة، اقتبسته من قبل في رثاء منيف بعد وفاة جبرا بعشر سنين، أعيده الآن:

لا تدري من يمضي، منْ ينتظر الرّاحلة الآن...

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/882